مجلة الديرة، الجمعية السعودية لعلوم العمران، العدد ٢٣، الرياض، نوفمبر ٢٠٠٥م.

السمات التخطيطية للمدينة العربية الإسلامية وإحياء دور المسجد

د.م./ عصام الدين محمد على
أستاذ التخطيط العمراني المشارك
قسم التخطيط العمراني، كلية العمارة والتخطيط،
جامعة الملك سعود

تستمد المدينة تراثها الحضاري من خلال البيئة الحضارية التي تنمو فيها بشقيها الثابت والمتغير.
فالشق الثابت هو البيئة الطبيعية التي تكاد لا تختلف من عهد إلى آخر، و الشق المتغير هو البيئة الثقافية وهي تتغير على مر العصور.
وقد تميزت المدن في العصور الإسلامية باتجاهات تخطيطية وعمرانية كانت وليدة احتياجات وظروف سكانها حيث لم يكن علم التخطيط معروفا بمفاهيمه ونظرياته المعاصرة، كما أن وسائل وأساليب البناء في العصور القديمة كانت تختلف كل الاختلاف عن مثيلاها الحالية.
وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت اتجاهات تخطيطية وعمرانية تمثل قيما ومبادئ ومعايير في التخطيط والعمارة.

وعلى ذلك تعتبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى مدينة مثالية من وجهة نظر التخطيط المعاصر بنظرياته الحديثة وذلك لما حققته من توافق وتطابق بين الاحتياجات المادية والمعنوية التي جاءت تشكيلا فراغيا يعبر عن المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية.

ودار الزمان دورته وحل العصر الحالي ليشهد مدى ما انحدرت إليه المدينة العربية الإسلامية بالمقارنة بمدى تطور مدن الغرب.

ولأسباب عديدة بدأت سمات هذه المدن في التقلص والانحسار أمام قوى النمو والتوسع والامتداد العشوائي نتيجة لمؤثرات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو طبيعية في بعض الحالات، وإما نتيجة لأسلوب التغريب الذي ساد العديد من مدننا وهو ما يطلق عليه البعض بالاستعمار الذاتي.

ومن هنا غدت المدينة العربية الإسلامية اليوم في تقهقر مستمر وتراجع، وبدلا من الانسجام والأصالة والقيم حلت محلها تراكمات رهيبة من التناقض والتكدس وضياع الشخصية. تراكمات من الكثافات العالية وسيطرة السيارات وتنافر المباني وضياع الإنسان وفقدان وانعدام الأمن والصحة والجمال وسيطرة التلوث بكل مصادره.

وتشترك المدن العربية في عامل حضاري مهم وهو الدين الإسلامي، وعليه فلا نستطيع تحديد مفهوم الحضارة في المدن العربية بدون ربط الحضارة العربية بالحضارة الإسلامية، وذلك لان الحضارة الإسلامية حددت إلى حد ما الأشكال الرئيسية لمعالم المدينة العربية الإسلامية، حيث أنها أبرزت المساجد وحددت نوعية الساحات التي تحيط بها وبلورت نوعية الاتصال بين الجنسين وكذلك حددت نوعية تصرف المجتمع بالنسبة إلى التعاليم الدينية وهذا بدوره شكل الأبعاد الفيزيائية سواء للمسجد أو المسكن أو المدينة بشكل عام.

كما تميزت المدينة العربية في العصور الإسلامية المزدهرة - رغم اختلاف مواقعها ومناخها ووظائفها وثقافات أهلها وأشكال مبانيها - بتوجهها إلى الداخل من خلال عناصرها العمرانية المختلفة التي تكاد تكون ثابتة، وقد كانت هذه العناصر تعبير فطريا صادقا عن المجتمع واحتياجاته وهي المسجد، والخدمات العامة، والمناطق السكنية، وشبكة الشوارع.

ومن أهم السمات التخطيطية التي تميزت بها المدينة العربية الإسلامية ما يلي:

- وجود المسجد ودور الإمارة في وسط المدينة حيث يمر الشارع الرئيسي الذي يربطهما بالمباني العامة والمناطق السكنية القريبة تأكيدا للتكامل بينهما وبين المجتمع.

- ارتباط المبنى الديني بكافة الأنشطة الرئيسية التعليمية والثقافية والصحية والتجارية لما يحققه من كونه مركز جذب رئيسي وعمله كوحدة اجتماعية ودينية.

- استخدام نظرية التجمع النوعي التخصصي التجاري والحرفي وفكرة الأسواق المغطاة مع توفير الفراغات المفتوحة تفاديا للملل وتعبير عن نوعية التجمع التجاري.

- عدم وجود أماكن ترفيه بالمدينة عدا ميادين الفروسية وتنتشر المسطحات المائية والمناطق الخضراء بالمدينة على مستويات فهنالك الحدائق العامة والحدائق الخاصة داخل البيوت.

- تدرج الـشوارع واسـتخدام الـشوارع الضيقة الغير مستقيمة لتوفير مـساحات مظللة ولمنع الرياح تماما، وتأكيد الجوار والترابط، وكـذلك اسـتخدام الـشوارع المسدودة (الحارة)، حيث كانت تنتهـي ببوابات لغلق المناطق الـسكنية وذلـك لتحقيق الأمان والخصوصية.

- استخدام الوحـدة التخطيطيـة الـسكنية المتكاملة بخدماتها (الخطة السكنية).

- تكتل المباني وتلاصـقها حيـث تعمـل كحاجز ضـد الحـرارة كمـا أن هـذا التلاصق يقوى ويسهل الاتـصال بـين العائلات ويؤكد قيمة الجوار والتـرابط وهى أمور حث عليها الإسلام.

- تسلسل المناطق المفتوحة بالنسبة للفرد، حيث يخرج من فناء بيته المفتوح إلـى حارة ضيقة ومنها إلـى سـاحة كبيـرة وهكذا يسير في تضاد.

ويعتبر المسجد الجامع من العناصر المركزية المحورية بالمدينة الإسلامية فهو قلبها النابض بالحياة وله دور أساسي في المجتمع الإسلامي ويعتبر قصر استعماله لإقامة شعائر الـصلاة دون الوظائف الأخرى التي ارتبطت بـدور المسجد منذ بداية الإسلام هو تقلـيص لـدور المسجد مما ينعكس سلبيا على ارتباط المجتمع بالمسجد الأمر الذي أدى إلى انفصال المجتمع عن دور المسجد الأساسـي بالإضـافة إلـى وظائف المسجد الأخرى.

وارتبط المسجد منذ بداية الإسـلام بوظـائف تتلخص في أنه:

- مركز ديني واجتماعي، تقام فيه شـعائر الصلاة، وتفسير ودراسة تعـاليم الـدين وكتاب الله، بالإضـافة إلـى اجتمـاع المصلين بساحته خمس مرات يوميا بعد أداء الصلاة.

- مركز سياسي، لإلقاء الخطـب وتلقـي البيعة وإذاعة البيانات وحشد وخـروج الجيوش، ومكان للاجتمـاع واسـتقبال السفراء وعمل المزادات، بالإضافة إلى انه ساحة العدل للحكم بين الناس وإقامة الحدود.

- مركز ثقافي وتعليمي، تقام فيه حلقـات العلم والمناظرات بين العلماء.

ويتوقف البعد بين المساجد (المـساحة التـي يخدمها المسجد) على مسافة السير في الفترة الزمنية بين الآذان والإقامة، وهناك العديد من الكتب والأبحـاث التـي تناولـت المعـايير التخطيطية والتصميمية الخاصة بالمساجد، من حيث الحد الأقصى للمساحة التـي يخـدمها المسجد وسعته (عدد المصلين) ومساحته.

وعلى ذلك فإحيـاء دور المـسجد بالمدينـة العربية الإسلامية ليس فقط إحياء لإحدى القيم

والمعايير التخطيطية للمجتمع الإسلامي بـل إنه إحدى المقومات الأساسية لتأصـيل القـيم الحضارية في بناء المدينة، لذلك نجـد انـه لتأصيل القيم العمرانية الإسلامية في المـدن المعاصرة لابد من إعادة بناء القاعدة الأساسية للقيم الدينية وتأصيلها في المجتمع عن طريق ربط المسجد بالخـدمات المختلفـة الثقافيـة والتعليمية والاجتماعية والإدارية والـصحية وذلك علي المستويات المختلفة للمدينة حتـى يمكن أن تنعكس بعد ذلك تلقائيا على التكوين العمراني لهذه المدنية.